تحية الكتاب

بقلم حضرة صاحب العزة الأستاذ

محمود تيمور بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

عرفت الثقافة العربية القديمة للتاريخ حقه ، ورعت جانبه ؛ فإن ركن التاريخ فى مكتبة العرب حافل بروائع الآثار ، وما من عصر من عصور الأمم العربية إلا تمخض عن كتب تاريخية ، تجمع بين التعدد والتنوع ، جرت بها أقلام الأعلام من العلماء والأدباء .

غير أن هذه الكتب التى يخطئها العد ، ولا يستطيع أن يستوعبها الفرد ، تتجلى فيها خصلتان على وجه عام ؛ أولاهما : أنها تعنى أكبر ما تعنى بأحداث الحرب والسياسة ؛ والأخرى : أنها تلتزم فى غالب أمرها خطة السرد والإخبار . والخصلة الأولى تجعل هذه الكتب جانبا واحدا من التاريخ ، لا التاريخ كله ؛ وأما الخصلة الأخرى فإنها تحيل هذه الكتب مادة للتاريخ ، لا كتبا فى جوهره الخالص ، وفنه الرفيع .

وإذن فقد ظلت المكتبة العربية مفتقرة إلى مؤلفات فى التاريخ العربى ، تعرض حضارته وما اعتورها من عوامل التقدم والتخلف ، وتسجل أحوال شعوبه العلمية والاقتصادية والاجتماعية ، غير مقصورة على تواريخ

الملوك والدول ؛ على أن يكون ذلك العرض والتسجيل جاريا على المناهج المقررة فى الدراسة والبحث ، وفى استبطان الأسباب والعلل ، وفى إحسان الموازنة والاستخلاص ، حتى تستبين التيارات التى تعمل ظاهرة أو خفية فى مجرى التاريخ ، فتعلو بها الأمم أو تهبط ، وتسعد أو تشقى .

وفى هذا العهد الذى هو خليق بأن يسمى عهد الانبعاث لتجديد العلوم والفنون والآداب فى الشرق كله ، كان لزاما أن يسد ذلك النقص فى فن التاريخ العربى ، حتى يأخذ حظه من ذلك التجديد الذى تسامت إليه الهمم ، وتوجهت نحوه الآمال .

وبين الطليعة ممن حملوا لواء التجديد فى كتابة التاريخ ، صديقنا الأستاذ الجليل « محمد جميل بيهم » ، فقد وهب لهذا الفن مواهبه ، وقصر عليه جهده ، وذلك هو يزود المكتبة العربية فى نحو ثلاثين سنة — على ما أعلم — أشتاتا من المؤلفات فى جوانب التاريخ العربى والإسلامى ، تعد فى جملتها مثلا رائعا من أمثلة الجهاد فى سبيل الانتقال بذلك التاريخ من مرحلة السرد والإخبار ، والاقتصار على شئون الملوك والدول ومشهور الشخصيات ، والدخول به فى مرحلة جديدة ، من تصوير الحياة على اختلاف ألوانها ومناحيها فى عصور العروبة والإسلام ، وذلك على نحو من استيفاء التحليل والتعليل ، والربط بين النتائج والمقدمات .

ولا ريب أن هذا المؤرخ المجدد خليق بما نال من مكانة علمية كريمة ، فهو أحد أولئك القليلين الذين تعشقوا العلم ، وأخلصوا له الحب ، وأوجبوا على أنفسهم التخصص ، وصبروا على التقصى والمثابرة فى غير ملالة ولا نكوص ، وذلك كله إلى جانب مافطر عليه من قدرة على التمييز والتمحيص ، ومن ألمعية فى تفهم التاريخ ، واستكناه بواطنه .

إنك لتقرأ ما يكتب من مؤلفاته التاريخية ، فيتوضح لك ماحرث من مختلف المراجع والأصول ، وما عانى من جهد فى البحث والاستقصاء ، ولكنك تراه وقد عدل بك عن المادة السطحية للتاريخ ، وتغلغل بك فى الأعماق ، يستشف لك ماوراء الظواهر ، فإذا أنت واقف على حقائق ونتائج لم يكن أمرها بالهين الميسور .

ولعلى لا أغمطه حقه إذا قلت إنه يجمع فى إهابه بين « الطبرى » و « ابن خلدون » . . . ففى مؤلفاته التاريخية مزاج من ثقة الراوى الأمين ، ونظرة الناقد البصير .

وإن مؤرخنا المجدد ليمتاز بخير ما يتحلى به الكاتبون فى التاريخ ، ذلك هو الاتزان . فأنت ترى فى عامة كتبه رصانة فى التدوين ؛ فلا جموح فى الحكم ، ولا ركود فى العرض ، ولكن دقة فيما يبسط من المعلومات ، واعتدال فيما ينتهى إليه من الآراء .

وهذا الاتزان الذى تمتاز به كتبه ، يجلو لك شخصيته إن كنت لم تأنس بمجلسه ؛ فهو رجل يكسوه وقار العلماء ، ويسوده هدوء الطبع ، وينم حديثه عن سماحة نفسية أصيلة .

وبين يدى القارئ كتابه الجديد « الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب » ، يواصل به تاريخ الأمة العربية الذى بدأه فى كتابه «قوافل العروبة ومواكبها». وفى هذا الكتاب الجديد تلتقى خصائص مؤلفه فى تدوين التاريخ ، فهذه الحلقة المفقودة حسبها من ضمان التقدير أنها حلقة من تلك السلسلة الذهبية التى يسديها الأستاذ « محمد جميل بيهم » إلى المكتبة العربية ، لتخلد معها ماخلدت على الزمان .

ديباجة الكتاب

لما أكببت على تأليف كتابى « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » لإصدار سفر جامع يصح أن يكون تاريخ أمة فى مشرقها ومغربها ، فى ماضيها وحاضرها ، لاحظت أن هناك حلقة مفقودة فى سلسلة تاريخنا القومى ، لم يوفها حقها أى مؤلف ، ذلك لأن ما بين أيدينا من كتب التاريخ الخاصة بالعرب ، إما أن تقف عند سقوط بغداد وظهور السلطنة العثمانية ، أو تتعدى مسرعة معظم الأجيال التى تلتها ، لمعالجة موضوع النهضة العربية الحديثة .

أما فيما بين هاتين المدتين ، فإن أحدا من المؤلفين لم يُعْنَ — على ما أعلم — بوضع تاريخ عام شامل للأمة العربية ، يتناول هذه الأجيال كاملة ، فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

نعم ، إن بعض المؤلفين قد تعرضوا للموضوع ، ولكنهم مع ذلك لم يملئوا الفراغ ، لأن كتبهم كانت إما إقليمية ، تحصر البحث فى قطر من الأقطار العربية ، وإما زمنية ، تتقيد بعصر من العصور . على انها كانت مع ذلك إذا تكلمت على السياسة أهملت الشئون الاجتماعية والاقتصادية ، وإن ألمت بالاقتصاديات أو الاجتماعيات أغفلت بحث السياسة .

لذلك وجدت الحاجة ماسة لصياغة الحلقة المفقودة ، التى تبتدىء من آخر القرن الثالث عشر ، وتنتهى بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وخصوصا أن هذا العهد المعروف بالعهد العثمانى ، يمثل تاريخ العرب فى التمدن الحديث ، كما أنه بالنسبة لأمتنا بمثابة فترة انتقال ، ودعت فى مبتدئها حضارتها الزاهرة ، واستقبلت فى منتهاها التمدن العالمى الحاضر .

هذا ، ولما لم أجد فى كتابى «قوافل العروبة» متّسعا لتوفية هذا البحث حقه ، تجاوزت هذه الأمنية وأنا آسف ؛ ثم لم ألبث أن عقدت النية على ملء هذا الفراغ ، شاعرا بحوافز تدفعنى إلى الإقدام . ولعل إلمامى بالتاريخ العثمانى وفلسفته ، هو الذى شجعنى على ذلك ، لأن تاريخ العرب خلال هذه القرون لم يكن مرتبطا بتاريخ آل عثمان فحسب ، بل كان متشابكا بتاريخهم ، بحيث يصعب على المؤرخ أن يجيد فى تدوين أخبار العرب خلال تلك الحقبة ، إذا لم يكن مزودا معرفة تاريخ الإمبراطورية العثمانية .

تمهيد

فى ذلك العام التاريخى (٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) الذى سقطت فيه قاعدة ملك العباسيين بأيدى المغول ، وقتل خليفتها وأهله ، وفتك هلاكو بسكانها ، حتى كان عدد القتلى يتراوح بين مليون ومليونين ، على روايات المؤرخين ، وألقى هذا الطاغية كتبها فى نهر دجلة ، وكانت لا تحصى ولا تقدر بثمن ؛ فى ذلك العام الذى عاصر احتضار التمدن العربى ـ ولد فى مدينة إسكود بآسيا الصغرى ، للأمير أرطغرل عامل السلطنة السلجوقية بقونية ، ولد أسماه عثمان ، قدر له أن يكون مؤسس سلطنة عظيمة الشأن ، تحمل اسمه ، وأعنى بها دولة آل عثمان .

سقطت دار السلام ، وما سقطت فى الواقع هذه البلدة وحدها ، وإنما هوت معها الأمة العربية قاطبة ، ولم يبق لها فى الحكم أثر إلا ما كان من إمارات فى الجزيرة وغيرها محدودة النفوذ ، وعلى رأسها الدولة الرسولية باليمن (٦٢٦ — ٨٥٨ هـ) ، والدولة النصرية بغرناطة (٦٢٩ — ٨٩٧هـ) ، وكانت يتيمة وحيدة بالأندلس ، تعانى آلام الاحتضار .

أما الخلافة العربية ، التى انتقلت بعد سقوط بغداد إلى القاهرة ، فقد أصبحت بمصر ضيفا على ملوك الأعاجم ، ولا شأن لها إلا ما كان من قبيل المكانة الروحية ، وكان الخلفاء العباسيون بالعراق قد احتفظوا حتى فى عهد تقلص سلطتهم ، واقتصارها على بغداد وما حولها ، بنفوذ الخلافة العظيم على السلاطين المتغلبين ، وعلى جميع العالم الإسلامى .

ولقد تعرض ابن خلدون بعد مضى قرن ونصف قرن على سقوط دار السلام ، لوصف حال العرب . قال : « ولما ذهب أمر الخلافة منهم ، وامحى رسمها ، انقطع الأمر جملة من أيديهم ، وغلب عليهم العجم دونهم ،

وأقاموا بادية فى قفارهم ، لا يعرفون الملك ولا سياسته ، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك فى القديم[١] » .

ونحن لا نجارى صاحب المقدمة فى هذه المبالغة ، ولكنا لا نستطيع أن ننكر مع ذلك ما قاله فى حدود انقطاع الأمر جملة من أيدى قومنا العرب ، وغلبة العجم دونهم فى المغرب والمشرق .

ففى شمالى إفريقية قام المماليك البحرية بمصر (٦٤٨ — ٧٩٢ هـ) ، وخلفهم عليها المماليك الجراكسة ، وألحقوا بها الشام وكيليكيا ، وقام بنو زيان بليبيا (٦٣٣ — ٧٩٦ هـ) وبنو حفص بتونس (٦٢٥ — ٩٤١هـ) ، وبنو مرين بمراكش (٥٩١ — ٩٧٥ هـ) ، أزمان كانت الجزائر موزعة بين أصحاب الإقطاعات ، آل مزنى فى بِسكرة ، وابن عمرو فى بجاية ، وآل عبد الواد فى نجود تلمسان ، وفرع من بنى حفص فى قسطنطينة ، وكلهم من البربر .

ولولا انصراف دولة البرتغال عن الفتح إلى جوب البحار ، فى سبيل الاتجار ، لأصبحت بلاد المغربين فريسة لها ولأسبانيا ، ومع ذلك فقد احتلت الدولتان وقتئذ طنجة وسبتة وأرزيلة ، ووضعوا يدهم بذلك على مجاز جبل طارق ، ففصلوا بين دولة بنى الأحمر بالأندلس وبين أخواتها فى عدوة المغرب ، حتى قضوا عليها أواخر القرن الخامس عشر .

وأما فى الشرقين الأوسط والأدنى ، فقد قام على أنقاض السلطنة السلجوقية التركية أتابكتها وعمالها ، وأنشأ هؤلاء حكومات لم يكن لأكثرها عمر طويل ، ولا أمر نافذ . ثم أعاد المغول الكرة على البلاد العربية بعد قرابة نصف جيل من سقوط بغداد ، وكان هدفهم فى هذه المرة غير هدفهم فى عهد هلاكو ، حينما حمل على المسلمين متآمرا مع الصليبيين ؛ كان الداعى لحملة المغول الأخيرة أن الخان غازان بن أرغو ، شاء بعد إسلامه ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة : فصل فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك .

أن يبسط سلطانه على إخوانه فى الدين بالشرق الأدنى ، ولكنه إذ تهيب مماليك مصر، تحول عنهم إلى الأناضول، وقضى على سلطنة قونية السلجوقية ، (٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م) .

ويبدو هذا الحادث لأول وهلة ، كأنه حادث هين ، والواقع أنه كان من الأحداث العظيمة فى التاريخ ، لأنه فسح المجال لقيام إمبراطورية جديدة ، أعنى سلطنة آل عثمان ، التى تحكمت فى مجرى التاريخ مدة من الزمن ، فى القارات الثلاث على السواء : آسيا وأوربة وإفريقية .

فقد كان عثمان شاه جد هذه الأسرة عاملا على مقاطعة أناطولية لدولة قونية ، فما إن قضى المغول على هذه الدولة حتى أعلن استقلاله ، تاركا لأبنائه تحقيق أمانيه وآماله ، فأتيح لهم مالم يخطر فى باله ، عبور البوسفور والانتصار على جيوش أوربة المتحدة ، وفتح القسطنطينية (٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م) ، واستئصال شأفة الإمبراطورية البيزنطية ، التى كانت قد قامت فى وجـــه العرب طويلا ؛ كما تسنى لهم التقدم المطرد فى أوربة ، حتى حاصروا « وينة » قاعدة النمسا ثلاث مرات .

وهم إلى ذلك قد بسطوا سلطانهم على الشرق الإسلامى ، فدخل العرب جميعهم فى حكمهم ، سواء أكانوا بالمشرق أم بالمغرب ؛ وظلّ بعض أمصارهم عدة قرون تحت سلطتهم حتى حين قريب ، إلى معاهدة موندروى (١٩١٨) ، التى أوجبت على آل عثمان الاعتراف بالجلاء عن جميع الأقطار العربية .

وإذا كان ذلك العام الذى قامت فيه السلطنة العثمانية يعتبر عام شؤم فى نظر بعض قومنا ، لأن هؤلاء الترك دفنوا البقية الباقية من حضارتنا ،

ووطدوا أركان سلطانهم على هاماتنا بالقوة والعنف ، فهو فى نظر بعض أصحاب الفكرة الملية عام خير وبركة ؛ ذلك أن المسلمين الذين كانوا قد أمسوا عرضة لغزاة الغرب والشرق ، وهدفا لظلمهم، وجدوا فى آل عثمان المنقذ المخلص ، وخصوصا أن هؤلاء الترك تناولوا الراية من العرب عقب سقوطها ، ورفعوها عالية خفاقة ، فأعادوا إلى الأذهان ذكرى الفاتحين الأوائل ، وأعادوا مع هذه الذكريات عز الإسلام وأمجاده .

وإنه لمن دواعى سرورنا أن نحاول بهذا الكتاب رفع الستار عن تاريخ أمتنا العزيزة ، فى هذا العهد الطويل ، ونرجو أن نكون من الموفقين .